الشيخ لاجابته ثم اجاب عن هذا السؤال قائلاً كلاً اذا توقعنا منهُ ان يشرلواء السلم في العالم حالاً ولكن نعم اذا لم نطلب ما يستحيل على الناس تحقيقهُ . فانهُ ما من خلاف بين دولة واخرى الاَّ ويمكن فضهُ اذا رغبت الدولتان في ذلك . وما من خلاف بين دولتين الاَّ وهو في درجة من الاهمية حتى يوجب امتشاق الحسام اذا ارادت احداهما ذلك . ثم اشار الى المستر كارنجي فقال انهُ اشد الذين هناك سروراً لانهُ يمثل ثروة اكتُسبت بالتعب والنصب ثم أوقفت على نفع البشر

خمارويه والي مصر (١)

﴿ ابو الجيش خمارويه ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ (٨٨٤ — ٨٩٦ م) ﴾ — تولى إمارة مصر بعد احمد بن طولون ولدهُ خمارويه ، وهو في العشرين من عمرهِ . اما اخوهُ العباس فكان لا يزال معتقلاً ، والرعيةُ نافرةٌ منهُ لانهُ عقَّ اباهُ ، وكفرَ بنعمتهِ . على ان اباهُ اوصى لهُ قبل وفاتهِ بولاية الشام تحت سيادة اخيهِ خمارويه ، ولكنهُ لم يتمتع بتلك الولاية ، لان اخاهُ امر بقتلهِ لتمنُّعهِ عن الاعتراف لهُ بالإمارة

ولم يستتب الامر لخمارويه في الشام بعد قتل اخيهِ ، وذلك ان ابن كَنْدَاج ، عامل الخليفة على الموصل ، وابن أبي ساج ، عاملهُ على الانبار ، وغيرهما من الولاة حاولوا نزع سورية وغيرها مما ملكتهُ مصر في آسية ، واعادتهُ الى حوزة الموفَّق . وكانت حجتهم في ذلك ان خمارويه مُغتصب الإمارة ، يأخذها إرثاً عن ابيهِ دون ان يُعينهُ فيها صاحبُ الخلافة . وقد وافقهم على ذلك بجيوش دمشق . فعقد خمارويه لابي عبد الله احمد الواسطي على جيش الى الشام ، وعقد لسعد الاعسر على جيش آخر ، وبعث بمراكب لتقيم في السواحل الشامية . فاستال . أعداؤهُ قائدهُ أبا عبد الله الواسطي ، فواطأهم على مأربهم اذ كان يخاف ان يوقع بهِ خمارويه لانهُ كان هو المشير عليهِ بقتل أخيهِ العباس . وانضمَّ اليهم أيضاً ابن الموفَّق أبو العباس من بغداد ، وساروا فاتحين في البلاد حتى دخلوا دمشق . واتصل ذلك بخمارويه فخرج من مصر الى فلسطين بسبعين الف مقاتل ، والتقى بابن الموفق ، فاقتتلا في « الطواحين » ودارت الدوائر على جيش خمارويه ، ونجا هو بنفسهِ وبنفرٍ من جندهِ الى الفسطاط

اما سعد الاعسر فظلَّ موالياً لخمارويه وجمع ما تبقَّى من عساكره ، وحارب ابنَ الموفَّق ، فكانت لهُ الغلبة ، واجلى الاعداء الى طرسوس . ثمَّ عاد الى دمشق فتفقها وارسل

(١) من تاريخ مصر بقلم السيدة هند عون

بشائر النصر الى مصر . ولم يكد يفرح خمارويه بها حتى زلزلت ارض مصر زلزالاً هائلاً هدم بيوتاً كثيرة وأمات ... نفس ، على انهُ ظنَّ منهمكاً في شؤونهِ الخاصة ، واغفل امر البلاد التي اعادها لهُ قائدهُ الباسل . ولما رأى سعدُ الأعسر إعراضَ سيدهِ واهمالهُ ، كرهَ ان يظلَّ في خدمتهِ . فخرج عن طاعتهِ ، واعلن استقلالهُ بولاية الشام ، فكان عملهُ هذا داعيةً لايقاظ خمارويهِ من خمولهِ ، فزحف الى الشام وهزم سعداً وقتلهُ ، ودخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) . وواصل السير حتى التقى بابن كُنداج ، صاحب الموصل ، فهزمهُ وتبعهُ حتى مدينة سامُرّا ثم اصطلحا . فاستقرَّ لخمارويهِ بعد ذلك الامرُ في مصر والشام . وعقد الصلح مع الموفَّق . ووقَّع لهُ الخليفة وليُّ عهدهِ امراً بتثبيتهِ في إمارتهِ

ولما وثق من نفسهِ ، وقدر قوتهُ حقَّ قدرها ، رأى من الحكمة ان لا يأمن جانب حليفيهِ ابن ابي ساج ، حاكم الانبار ، وابن كُنداج ، حاكم الموصل ، فانتهز فرصة خلاف بينهما للتدخل في شؤونهما ، فشبَّت من جرّاء ذلك حربٌ في ما بين النهرين كانت عاقبتها شؤماً على المتقاتلين وصفقةً رابحةً لخمارويهِ ، فنشر سلطتهُ على تلك البلاد ، واعترف لهُ امراؤها بالسيادة عليهم . ثم خرج عليهِ ابن ابي ساج في سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٨ م) واجتاحَ البلادَ السورية . فمشى اليهِ خمارويه بجيشٍ قويٍّ ، وقاتلهُ في جوار دمشق ، فهزمهُ وأجلاهُ عن سورية . وما زال يطاردهُ حتى دجلة حيث بنى عرشاً فخماً عنواناً لفوزهِ وسلطانهِ . ثم شبَّت فتنٌ في تلك الاصقاع اضطرَّت خمارويه الى قضاء سنةٍ أخرى في إخمادها ، واظهرَ من الشدَّة والبطش ما انزل الرُّعبَ في نفوس اعدائهِ . حتى انَّ حاكم طرسوس الذي كان قد نبذ طاعةَ الطولونيّين منذ ٢٦٩ هـ (٨٨٣ م) عرض خضوعهُ على خمارويهِ ، واعترف لهُ بالسيادة ، واهدى اليهِ ثلاثين الف دينار ، والف ثوبٍ ، وكمية كبرى من الاسلحة . ثم عاد فأردفَ هديتهُ هذه بخمسين الف دينار اخرى . وغزا خمارويهِ ما جاورهُ من الاملاك الرومانية فدوَّخها جميعها

ومات الموفق سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وعقبهُ موت ابن كنداج ، ثم موت الخليفة المعتمد . ولما آلت الخلافة الى المُعتضِد سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) ثبَّتَ خمارويهِ في مصر وخطبَ ابنتهُ قطرَ الندى وجعل مهرها مليون درهم ، وبعث اليها بهدايا نفيسة . ولما احتفل بزفافها الى الخليفة ، حملت على هودج فاخر ، وحمل معها مالم يُرَ مثلها ولم يسمع بهِ من قبل . وكان خمارويهِ قد بنى لها على كل رأس مرحلة تنزل بها ، بين مصر وبغداد ، قصراً فخماً ، وأخرج معها اخاهُ شيبانَ في جماعة كثيرة العدد ، فكانوا يسيرون بها سيرَ الطفل في المهد ،

فاذا بلغت مرحلةً من مراحل الطريق وجدت قصراً أُعدَّ لها ، فنزلتهُ على الرحب والسعة . فكانت في سيرها من مصر الى بغداد ، على بُعد الشقة كأنها في قصر ابيها تنتقل ، من مجلس الى مجلس ، بين الاطالس والحرير . وحمل خمارويه معها حلاها وجواهرها في عشرة صناديق كبيرة كان فيها ايضاً اربعة آلاف حزام تجوهر والف اناء من الذهب الابريز أُودعت فيها الروائح الزكية وقد كان جملة ما انفقهُ خمارويه على زواج ابنتهِ مليون دينار . ولكنَّ الخليفة شاء ان يعيضهُ منها فاعادَ اليهِ السيادة من الفرات الى برقة ، واخفض الجزية السنوية التي كانت تدفعها مصر للخلافة الى ٣٠٠,٠٠٠ دينار

ومما يؤثر عن خمارويه ان رواتب جيوشهِ في مصر كانت تبلغ ٩٠٠,٠٠٠ دينار . وكان كثير البذخ والسرف ، تقيل انهُ كان ينفق ٢٣,٠٠٠ دينار على مطبخ قصرهِ في كل شهر . وولع كأبيهِ بتشييد القصور ، فأُكمل بناء قصر القطائع وزخرفهُ زخرفة جميلة ، وحلاَّهُ بالذهب ، وزانهُ بالصور والنقوش وانشأ في ساحتهِ بستاناً غرسهُ باشجار الفاكهة على اختلاف اصنافها ، وطعَّم المشمش باللوز ، وغيرهُ بغيرهِ . وزرع فيهِ كل انواع الرياحين والورد والزعفران على شكل سطور مكتوبة . وبقي في ذلك البستان برجاً حبس فيهِ كل طائر حسن الشكل والصوت وانشأ داراً للحيوانات المختلفة الاجناس . وكان لهُ اسد أزرق العينين يُقال لهُ « زُرَيق » الفهُ وانس بهِ فكان يطلقهُ في دارهِ فلا يؤذي احداً . وكان اذا نُصبت المائدة في قاعة الاكل ربض زريق بين يدَي خمارويه يلتهم ما يرميهِ اليهِ . واذا نام سيدهُ سهر على حراستهِ لا تغمض لهُ عين . ومما اعتنى بهِ خمارويه كثيراً احراز الخيول الجياد ، وقد خصص لسباقها اياماً قامت في البلاد مقام الاعياد

ولما كان خمارويه في دمشق سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦ م) قتلهُ بعض خدمهِ غيلةً في فراشهِ . فنقلت جثتهُ الى مصر ، ودفن في سفح المقطم ، الى جانب جثة ابيهِ احمد بن طولون . أما قتلتهُ فصُلبوا على قوارع الطرق

وخلف خمارويه ابنهُ جيش ابو العساكر وهو في الرابعة عشرة من عمرهِ ، ولا يدرك معنى الحكم ولا يفقه اهمية الولاية ، فانصرف عن الاهتمام بشؤون البلاد الى اللهو واللعب ، فاغتنم ابو طَغَج بن جُف حاكم سورية هذه الفرصة للخروج عن طاعتهِ واقتدى بهِ غيرهُ من عمَّال الولايات التابعة لمصر فنبذوا حكم ذلك الصبي . وكان الاسراف الذي افتضاهُ انهماكهُ في الملاهي افرغ خزينة البلاد ، فثار عليهِ الجند وخلعوهُ وتوفي في السجن على اثر خلعهِ وكان هو من قبل ذلك قد اوجس شرًّا من اعمامهِ واغتال ثلاثة منهم